



مراد ولفرّد هوفمان:

أزمة الغرب:

الإسلام هو الحل

ترجمها عن الإنجليزية: عبد السلام البسيوني

هذه قراءة لعلاقة الإسلام بالغرب، قام بها - قبل 11 سبتمبر المشؤوم - المفكر الألماني المسلم، والدبلوماسي الدكتور مراد هوفمان، حاول فيها أن يردم الفجوة بين المسلمين والغرب، ويضع علامات إيجابية يحتاجها المسلمون، كما يحتاجها الغربيون في علاقاتهم بالعالم الإسلامي؛ فهل لا يزال لهذه القراءة نصيب من الواقعية والفاعلية؟ دعني أترجمها قارئ العزيز بشيء من الاختصار غير المخل إن شاء الله:

- خراب الحضارات يبدأ وينتهي عند العائلة!
- لماذا لم ينجح ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا الغربية في الخمسين سنة الماضية، في تحويل عدد كبير من أهل البلاد إلى الإسلام؟
- يعاني العالم الإسلامي من معوقات ورذائل: كالأمية، والفقر، والفساد، والظلم الاجتماعي، والتعذيب، والبلادة، وزرع الفتن، وقلة التحمل، والانفراد بالسلطة، والتمييز ضد النساء، والمادية المتزايدة.
- الانقسامات المذهبية بين المسلمين موجودة في إنجلترا وألمانيا؛ تمامًا كما هي موجودة في الهند أو تركيا، لدرجة أن الغربيين المهتمين بالإسلام يصيهم التشوش!
- معظم المسلمين المهاجرين إلى أوروبا الغربية - وعلى العكس من إخوانهم وأخواتهم من المسلمين الأمريكيين - خرجوا من ديارهم بحثًا عن التسامح، ولكي يجدوا المعاملة اللائقة، على أساس من القانون والإنصاف.
- غير صحيح - سياسيًا - أن هم لا يعادون الإسلام.. نعم إن معاداة اليهودية والسامية شيء محظور - هناك - وغير قانوني، أما معاداة الإسلام والعرب فنعم!
- تمثل الحضارة المعاصرة - بمقاييس التاريخ الإنساني العالمي - أول مجتمع عرفته البشرية في تاريخها يعيش دون روابط غيبية إيمانية ، وأول مجتمع عرفته البشرية يقوم على أسس معرفية إلحادية.
- في أثناء بحثها عن الحقوق التي تريدها أختها الغربية كانت المرأة المسلمة أكثر توفيقًا في الدفاع عن كرامتها؛ من خلال التقيد بالعادات وبالشرعية!
- يتجه كثير من المهاجرين المسلمين إلى تشكيل مجموعات عرقية متماسكة، توفر لهم الخدمات الاجتماعية الأساسية، والإحساس بأنهم في أوطانهم.

أولاً: الجاليات الإسلامية في الغرب

1- الاتجاهات والتأثيرات:

لو تجاوزنا - جغرافيًا - إستانبول وتركيا، وطبقًا للتقديرات المعتبرة فإن نحو ثلاثين مليون مسلم يعيشون حاليًا في أوروبا، نصفهم في البوسنة، والجبل الأسود، وصربيا (وإقليم سنجق في نوفي بازار) ومنطقة كوسوفو. ويعيش النصف الآخر في أوروبا الغربية. أما في أمريكا الشمالية - وبشكل رئيس في الولايات المتحدة وكندا - فيقدر عدد المسلمين - الذين يتزايدون باطراد - بين ستة وثمانية ملايين، يشملون رقمًا لا بأس به من المسلمين الأمريكيين من ذوي الأصول الأفريقية.

وقد نتج الوجود الإسلامي في أوروبا الغربية عن هجرة واسعة النطاق ، فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، لخليط عرقي يضم أعدادًا ضخمة من العمالة غير الماهرة، منها نحو مليونين وعُشر المليون (2.1) من الأتراك في ألمانيا، ونحو أربعة ملايين من المغاربة في فرنسا، ونحو ثلاثة ملايين هندو/ باكستاني، وبنجلاديشي يقيمون في بريطانيا. وطبيعي أن تختلف اتجاهاتهم وتأثيرات وجودهم اختلافًا عظيمًا، عن اتجاهات وتأثيرات المسلمين الموجودين في أمريكا الشمالية، حيث تجذرت هذه الجاليات الإسلامية هناك من هجرات الطلاب والأكاديميين ومعتنقي الإسلام من المواطنين الأمريكيين السود. إن ارتباط الحضور الإسلامي العريض في أوروبا بمجموعات عرقية يسهل تصنيفها وحصرها، يُعدُّ مشكلة كبيرة، حيث يشتد التحامل على الوجود الإسلامي؛ بناءً على قرون ماضية من الذكريات المتراكمة التي يعزز بعضها بعضًا.

وعلى سبيل المثال فإن الألمان يزعمون أنه فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر شكلت الإمبراطورية العثمانية تهديدًا عسكريًا عظيمًا ومستمرًا للنصارى في أوروبا الوسطى. وقد اعتبر الإسلام - ومنذئذٍ - دينًا تركيًا، واعتبر القرآن الكريم (إنجيل الأتراك). هذه حقيقة تؤثر سلبًا على مجموع العمال الأتراك الوافدين الذين يعملون في النمسا وسويسرا وألمانيا، وكأن لسان حال الناس القلقين هناك هو هذا السؤال الملح: هل سيحققون -

أي الأتراك - من خلال الهجرة السلمية الخادعة ما عجزوا عن تحقيقه بسيوفهم المعقوفة الحادة، حين أرادوا غزو فيينا؟!

وبشبه هذا ذكريات غزو المستعمرات واستباحتها؛ إذ يعقّد ذلك موقف المغاربة والتوانسة والجزائريين في فرنسا، وكذا موقف المسلمين من شبه القارة الهندية في بريطانيا. أما بالنسبة للفلسطينيين فإن مشكلتهم قد زادها تفاقمًا الإعلام الصهيوني ، الأمر الذي شكّل لهؤلاء الفلسطينيين عائقًا عظيمًا في أمريكا الشمالية.

2- وفي مواجهة هذه الخلفية فإن اتجاهات الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب تختلف بشكل واضح، وكذا إمكاناتهم الدعوية، نتيجة لما يلي:

أ - الجيتوهات (أحياء الأقليات):

يتجه كثير من المهاجرين المسلمين - وبخاصة عند العجز عن القراءة والكتابة، وضعف أدائهم للغة البلد المضيف - يتجهون بشكل طبيعي إلى تشكيل مجموعات عرقية متماسكة، توفر لهم الخدمات الاجتماعية الأساسية، والإحساس بأنهم في أوطانهم. وفي هذه المرحلة فإن التراث الشعبي - والإسلام جزء منه! (1) - يصير دائمًا أكثر أهمية للجيل الأول من المهاجرين، أكثر مما كان يشكله أثناء وجودهم في بلادهم الأصلية. وفي الوقت نفسه فإن هذا الجيل - الذي اضطر لترك بلاده، نتيجة أسباب اقتصادية لا أمنية على الأكثر - سينوي العودة بأبكر ما يستطيع بمجرد أن يتجمع لديه مقدار كافٍ من المال.

بناءً على هذا فإن الجيل الأول لا يستثمر بكثافة في مجال المؤسسات والمعاهد الدينية؛ بل إنه لم يكن يُتصور منهم أن يقوموا بالدعوة في بيئاتهم الجديدة غير المسلمة. وبدلاً من ذلك فإنهم استماتوا في الدفاع عن تقاليدهم الخاصة: (الموسيقى، والاحتفالات، والأزياء، والعادات الاجتماعية) واستمروا في التركيز على بلادهم الأصلية؛ خصوصاً القريبة من أوروبا، كمسلمي شمال أفريقيا وتركيا.

وثمّ بعض وجوه الشبه بين مسلمي أمريكا الشمالية وهؤلاء، تتمثل في مساجد (الهنود) ومساجد (العرب) ومساجد (السود).

وفي الجملة فإن التجمعات الإسلامية هناك أفضل اندماجًا من الناحية الاجتماعية، وأمر اندماجهم لا يزال مضطربًا.

وفوق هذا فإن كثيرًا من أفراد هذه التجمعات مدربون أكاديميًا، وناجحون وظيفيًا بشكل كبير. كذلك فإن أوطانهم الأصلية نائية، وهم على كل حال (أي المسلمون الأمريكيون) لا ينوون ولا يملكون الإمكانيات للعودة - باختيارهم - إلى مواطنهم الأصلية لأسباب سياسية.

ب- بناء المعازل (الجزائر السكانية).

وبمرور الوقت يفشل الجيل الأول من المسلمين المهاجرين - غالبًا - في حلم العودة لمواطنهم الأصلية، على أقل لأن الجيل الثاني (أبناءهم) يرفضون أن يرافقوهم في رحلة العودة.

ويشعر هؤلاء الأبناء - في الحقيقة - في كلا المجتمعين، (مجتمعهم الأصلي، المهاجر الذي شبوا فيه) فهم لا يملكون القديمة (الأصلية) ولا من اللغة الجديدة



تحقيق
تقدير

بالفرقة
ومجتمع
من اللغة

(المهجريّة) ما ينافسون به غيرهم.

عند هذا المحك يقرر أبناء المسلمين المهاجرين إقامة بنيتهم التحتية الإسلامية؛ بما فيها المراكز الإسلامية، والمساجد التي تقام في (العلّيات) والأفنية الواسعة والأدوار العليا لتمثل المسجد الحقيقي بمآذنه.

والواقع أن هذا هو الحال في كل مكان في أوروبا (من فنلندا بجالياتها التتارية والصومالية إلى السويد وهولندا والمجر وإيطاليا وأسبانيا).

وفي ألمانيا وحدها فإن استعداد المسلمين للبناء والاستثمار سنة 1998م أسفر عن قيام (2500) ألفين وخمسمائة من المراكز والمنظمات الإسلامية، لا يزال معظمها ملتزمًا خطوطًا وطنية، وأشدّها قوة في ألمانيا هي المؤسسات التركية الخاصة مثل ملّي جورش، والحركة السليمانية (vikz) والحركة النورسية (نورسولوك) المنسوبة للمفتي الكردي الراحل سعيد النورسي.

وقد استغرقت هذه المنظمات الآن في العمل الدعوي، لكنها تقتصر - للأسف - على جهود الدعوة الدفاعية التي ترمي إلى حماية الذات (أي بين المسلمين فقط). وبناءً على وعود شخصية ومساعدات مالية تقوم جزائر إسلامية يمكن أن يشعر فيها الترك أو البوسنيون أو الألبان أو الإثيوبيون كأنهم في بلادهم، ويحافظون على إسلامهم من خلالها. وإن بواعثهم الدفاعية قوية؛ لدرجة أنهم لمّا يستطيعوا أن يبدلوا جهداً حقيقياً للتفريق بين ما هو من العادات (والذي هو شيء حضاري خالص) وما هو مبني - أساساً - على الشريعة. ونتيجة لهذا فإن الانقسامات المذهبية موجودة في إنجلترا وألمانيا؛ تمامًا كما هي موجودة في الهند أو تركيا، لدرجة أن المواطنين المحليين المهتمين بالإسلام يصيهم التشوش؛ إن لم يتعدوا كلية عن المسلمي ن.

وهذا يوضح - بجلاء - لماذا لم ينجح ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا الغربية في تحويل عدد كبير من أهل البلاد إلى الإسلام.. ففي ألمانيا وحدها مليونان من الأتراك الذين لم ينجحوا طوال ثلاثين سنة في أن يجذبوا إلى الإسلام أكثر من 60.000 ألماني. وهذه النتيجة المؤسفة ستبقى - على كونها سلبية - زمنًا أطول، ما دامت غالبية الأتراك مستمرة في تركيز اهتمامها على إعادة أسلمة تركيا الكمالية، بدلًا من الدعاية للإسلام في ألمانيا نفسها.

مرة ثانية أقول إن الصورة في أمريكا الشمالية أكثر إشراقًا؛ فالأمريكيون من ذوي الأصول الأفريقية لا يعدّون مهاجرين، لكونهم بلا وطن يركزون عليه غير أمريكا نفسها.

كما أن المهاجرين المسلمين كذلك - خصوصاً ذوي الأصول الفلسطينية والسورية والعراقية واللبنانية والمصرية - هم أكثر إصراراً وتنظيماً من خلال روابطهم العرقية. وهم قادرون - عقلياً - على أن يكونوا على قدم المساواة مع غيرهم من الجاليات الأخرى، (للتفاعل) مع بيئتهم غير المسلمة والتأثير فيها.

كما أن لهم بنيتهم التحتية الإسلامية التي تضم المدرسة العليا للدراسات الإسلامية الاجتماعية، في ليسبرج (فرجينيا)، والجالية الإسلامية في أمريكا الشمالية (إسنا I.S.N.A) ومجلس العلاقات الأمريكية (I.I.S) في لوس أنجلوس. وهذه المؤسسات - على قلتها - تتفاعل مع الرؤية الأمريكية حولها، وأصحابها مستغرقون تماماً في شرح الإسلام (لكل من يهمه الأمر).

ج - التحدي

إن التحدي الأكبر الذي يواجه المسلمين في أوروبا وأمريكا الشمالية هو: الجيل الثالث من المسلمين، الذي ينبغي أن يؤسس مجتمعات إسلامية مختلطة بالكامل، وستكون محكومة بعامل أو أكثر من العوامل العرقية.

وهذه المجتمعات المتكاملة لا بد أن تركز بأقل قدر على ذاتها، وبأكثر قدر على العالم المحيط بها، من أجل الدعوة لإسلام عالمي نقي غير مشوب.

ثانياً: ما الذي نهدف إليه؟

1- الإصرار:



كما شخّصنا - وحتى الآن - فإن معظم المسلمين المهاجرين إلى أوروبا الغربية - وعلى العكس من إخوانهم وأخواتهم من المسلمين الأمريكيين - خرجوا من ديارهم بحثاً عن التسامح، ولكي يجدوا المعاملة اللائقة، على أساس من القانون والإنصاف.

وهذا الاحتمال - هو الآخر - ربما كان طبيعياً بالنسبة

لهؤلاء المهاجرين الذين ليس من السهل عليهم الحصول على جنسية البلد الذي ارتضوه مهجرًا لهم، كما في ألمانيا.

وما دام الإنسان واقفًا تحت ضغط المخاطرة بترك بلاد المهجر (بالترحيل والإبعاد) فهو - غالبًا - لا يملك الإصرار (على الدعوة) لذا فليس من المبالغة أن نقول إن الشعوب الأوروبية الآن - ورغم ملايين المسلمين الذين يعيشون وسطهم - يعرفون عن الإسلام أقل كثيرًا مما كانوا يعرفون حين دفعهم الفضول لمعرفة الشرق من خلال الاستشراق وأدب المغامرة. شيء مؤسف.. ولكنه حقيقة.

2- التفاؤل:

ومهما كان الحال فإن عجز العمل الدعوي في القارة العجوز ليس راجعًا - فقط - للحالة الهزيلة للمهاجرين، ومستواهم التعليمي، واستغراقهم في شؤونهم الخاصة، وأمور مواطنهم الأصلية.

فهناك قدر لا بأس به من التشاؤم القاهر الذي يدخل ضمن الأسباب، انعكاسًا للاتجاهات السلبية المتأصلة ضد الإسلام في أوروبا (2) ومن الطبيعي أن نفترض أن المسلمين يمكنهم أن يتوقعوا " التسامح " في أحسن الأحوال، و" التمييز " في أسوأها.

3- الحكمة التكتيكية

قد يكون من الحكمة التكتيكية - حقًا - أن نتأني في رسم أهدافنا، وألا نكون - كذلك - خياليين عند رسمها.

فأوروبا - رغم كل شيء - لم تكن أبدًا قارة متعددة الأديان، وفق الموازين الدينية. والحق أن تقاليد الموروثة في التعصب الديني، المبنية على الحماسة - حماسة التبشير بالنصرانية - وروح الانتصار، كانت بسبب ظهور دين جديد (الإسلام) ظل يمثل لجماهيرها مشكلة نفسية كبيرة.

ومما يجعل الأمور أشد سوءًا أن الإسلام - على عكس البوذية مثلاً - هو الدين الوحيد الذي اعتبر التهديد الأكبر، والفكرة القادرة على مناوأة النصرانية، وذلك على مدار أكثر من ألف سنة..

فهل يمكن أن نتوقع أن الإسلام المهترق (في نظر النصرانية) يمكن أن يجد ترحيبًا، أو يشجع وجوده الآن؟!

إننا لا يمكن أن نتوقع أن تزول - نفسيًا - في ليلة واحدة تلك الآثار الأثيمة للدعاية المضادة للإسلام، التي بدأت منذ الحروب الصليبية، والمحاولات المتكررة لفتح العالم الإسلامي، وصولًا إلى القرن العشرين، وهي تحمل الصورة النمطية ذاتها للمسلم. فهل من المعقول أن نفترض قبولهم ارتفاع منارات المساجد بجانب الكاتدرائيات من الناحية الأيديولوجية، كما هو من الناحية النظرية؟

الحقيقة أنه حتى لو قُبلت عملية إنشاء منارات محدودة الارتفاع - ولو بشيء من التذمر هنا وهناك - فإن مقاومة الأذان الذي (يشهد) أن محمدًا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر يلقي عنادًا وصلابة، اللهم إلا في بعض الأماكن النائية مثل فينكس في أريزونا. ومع قولنا بأن هذا الصراع متوقع، فقد يكون من الحكمة عدم إثارة مخاوف الناس بفرض تغيير جذري للنموذج المتكون في أذهان الغربيين، الذين بُرمجت عقلياتهم - عبر القرون - بشكل معادٍ للإسلام، بواسطة حملات التضليل المدروسة.

ويتمثل المحذور الجوهرى في حقيقة أن الإسلام في انتشاره، يبدو وكأنه تهديد لنمط الحياة الغربية بكاملها؛ ابتداءً من الفردية المفرطة، وإذكاء الشهوات، واللا أدبية، وانتهاءً بالتدخين، وشرب الخمر، وأكل الخنزير.

وإن الخوف من رد فعل شعبي عام - في حالة إحراز نجاح واضح وسريع - هو خوف مبرر تمامًا. وهذا يفسر نمو الأجنحة اليمينية كما في فرنسا وألمانيا، وكذا المجموعات الأصولية النصرانية عالية التسليح، التي تتبنى برامج متهورة ضد الإسلام. الأمر الذي يجب - حقًا - أن نحذره.

وغير صحيح - سياسيًا - أنهم غير معادين للإسلام.. نعم إن معاداة اليهودية والسامية شيء محظور - هناك - وغير قانوني، أما معاداة الإسلام والعرب فنعم.

4- تحدي التنوير

إن التشاؤم بشأن فرص الدعوة يبدو أمرًا مبررًا بقوة، بناءً على اتساع وجهة النظر الحداثية القائلة بأن الإنجازات الغربية فيما بعد التنوير هي قيم عالمية، لا بد أن تحاكي على مستوى الدنيا كلها.

وفي هذا إشارة - قبل كل شيء - إلى نظام وستمنستر الديمقراطي (3)، والنظام الجمهوري، والعلمانية، والعلمية، والصياغات الغربية لحقوق الإنسان - بما فيها مساواة وتحرير المرأة - وحتى التعددية فيما بعد الحداثة تفترض - بأشكال متفاوتة - أن الإسلام يتعارض بشكل أساسي مع برامج العولمة الثقافية والسياسية.

5- ليس التسامح، بل القبول:

وبعد: فإنني - ضد كل التحيزات - أسلم بقوة أنّ على المسلمين - في كل مكان بالغرب - أن يهدفوا في دعوتهم إلى ما هو أكبر من التسامح: إلى القبول.

وقد أدرك يوهان ولفجانج فون جوتيه - منذ مائتي عام - أن التسامح قد يساوي الإهانة حين قال: (إن التسامح الديني ينبغي حقًا أن يكون اتجاهًا انتقاليًا، مؤديًا إلى القبول. أما التسامح المطلق فإنه يساوي التحقير والإهانة).

إن التعددية الأمانة، كما وردت في سورة المائدة /48 (4) تقتضي الاعتراف المتبادل: القبول والتساوي. وهذا الهدف جوهري، لأن القبول - وليس مجرد التسامح - هو الذي سيوضح أن الأقليات الإسلامية وأنشطتها هي أشياء عادية تمامًا، وسيصير الإسلام في أمان (حينما وأينما) يصير في حالة تطبيع كاملة.

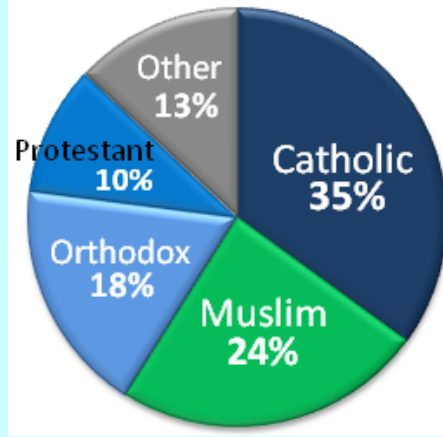
6- حالة التطبيع (الاعتیاد التام)

إن ما يعنيه التطبيع - في ضوء التعددية الدينية - يمكن أن يلاحظ في دمشق أو القاهرة أو عمان أو استانبول، كما يمكن أن يلاحظ في أمريكا الشمالية كذلك.

وبعد قرون من الحروب النصرانية الداخلية - فيما بين نصارى أوروبا - أصبحت الأمور عادية - على أقل تقدير - لكي ترى كنائس الكاثوليك وكنائس البروتستانت وقد تجاوزت، أو تقاربت في قلب المدينة.. ولكن هذا لا يكفي، فعندما يضاف المسجد على المشهد، يمكننا - عندئذٍ - الحديث عن التطبيع في أوروبا وأمريكا الشمالية وعن تطوره.

وتعطينا الكنيسة الكاثوليكية مثلاً لما تعنيه حالة التطبيع، فقد قطع المجلس الاستشاري بالفاتيكان - الذي انعقد في روما أوائل الستينيات - قطع شوطاً كبيراً في الاعتراف بالإسلام كطريق صالح للخلاص، لكن روما رفضت - ولا تزال - الاعتراف بمحمد صلى الله عليه وسلم مرشداً أصيلاً في هذا السبيل..

وهنا يبدو الفرق ملموساً بين القبول والتسامح.. فقط حينما يقبل محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً لله تبارك وتعالى عندهم (وكذا القرآن الكريم كلاماً لله عزوجل) فإن الحوار اللاهوتي النصراني الإسلامي - الذي سيكون بين أكفاء - سيكون عندئذٍ معقولاً.



Arab American religions

ثالثاً: ما الذي يحتاجه الغرب



1- الطلب مقابل العرض

في رأيي أن الدعوة الإسلامية ستحرز تقدماً في الغرب - فقط - حينما يقبلون الإسلام هنالك كشيء عادي.

وإن التطبيع لا يمكن أن يحدث حينما يظهر المسلمون - أمام الغربيين بأنهم لا هم لهم إلا الحصول على شيء ما (التسامح، أو المواطنة، أو الحماية القانونية، أو القبول) بل عندما يظهرون كأشخاص يملكون شيئاً هاماً يقدمونه، شيئاً ينقص الغرب بشكل واضح، شيئاً يحتاجه الغربيون بشدة لكي يستمروا كحضارة.

وإن استراتيجيات الدعوة الصحيحة بين الغربيين - وبالذات للجيل الثالث من المهاجرين - تحتاج قبل كل شيء إلى تحليل متوازن للثقافة الغربية المعاصرة، وللمعتقدات هناك. وينبغي على هذا لزوم التقديم المقنع للإمكانات الشافية للإسلام (الإسلام وسيلة علاج).

2- النصر الفارغ

قد يكون الغرب قد انتصر أيديولوجيًا، وعسكريًا، واقتصاديًا على الشيوعية. وقد تبدو الولايات المتحدة - منذ اختفاء الاتحاد السوفييتي - القوة العظمى الوحيدة الباقية. كذلك فإن العولمة التكنولوجية والاقتصادية تبدو طريقًا ذا اتجاه واحد اضطراريّ ، يتجه من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق.

وقد يبدو الغرب هو القائد اعتبارًا بالدخول المالية العملاقة، ونسبة من يعرفون القراءة والكتابة، ومتوسطات الأعمار، وضوابط حقوق الإنسان؛ بما فيها المشاركة السياسية. هذا كله قد يكون مسلمًا... لكن: ماذا بعد؟ هل هذا هو الفردوس الذي على أثره تدق نواقيس نهاية التاريخ (كما يرى فرانسيس فوكوياما) ويتضخم الاستعداد لصدام دموي مع الحضارات الأخرى (كما يرى صمويل هنتنغتون)؟ إن هذا يشكل - في مفهومه العميق - أزمة وجودية على المستويين النظري والتطبيقي.

3- نقض التنصير:

ولتقديم تصور صحيح للحالة الأخلاقية في العالم الغربي، فإن من الضروري إدراك تفرد الحضارة المعاصرة؛ بمقاييس التاريخ الإنساني العالمي : فهي تمثل أول مجتمع عرفته البشرية في تاريخها ، يعيش دون روابط تربطه خارج حدود البشرية (غيبية إيمانية)!

وأول مجتمع عرفته البشرية - في الحقيقة - يقوم على أسس معرفية إحادية (أو على الأقل لا أدوية).

وقد دخلت أوروبا - أكثر من الولايات المتحدة - عصرها الذي يمثل الخروج على النصرانية (عصر ما بعد النصرانية). ولقد انخلع الأوروبيون من النصرانية إلى حد لم تعد النصرانية فيه عاملاً محرّكاً في السياسة أو الاقتصاد. وبالكاد في جانب العلم - فهي لا تؤثر في إنتاج التكنولوجيا - وفي الأخلاق الخاصة (الشخصية). ورغم أن عدة من المفاهيم الأخلاقية - في الحياة العامة - لا تزال تتدثر بأزياء نصرانية، فإن المادية المطلقة، والإلحاد الفلسفي، والنسبية الأخلاقية تحكم أوروبا.. وهذه حقيقة قائمة في الميادين كلها هناك.

والحق أنه برغم جيوب الإحياء النصراني الموجودة هنا وهناك ، فإن سقوط الدين في الغرب قد وصل لحدّ أن جنود العصور الوسطى - من النصارى والمسلمين - كانوا يؤمنون بالله تعالى ودينه أكثر منهم الآن، وحتى في أسوأ فترات المواجهة الأيديولوجية فإن الناس عمومًا كانوا يعرفون عن الدين أكثر مما يعرفون الآن!

4- عصر ما بعد النصرانية:

أنا لا أزعم هنا ان النصرانية قد زالت، فلا تزال الكنائس قائمة كمعاهد أو مؤسسات، ولا يزال البابا يلقي أوامره للجماهير، ولا تزال التأثيرات بعيدة المدى للتعاليم النصرانية باقية - وستظل - معنا لوقت طويل.

والواقع أن هناك حركة تبشيرية أصولية (تعود إلى الجذور الأولى) تندفع في طريقها ؛ متمثلة في الميليشيات الأصولية النصرانية - خاصة في الولايات المتحدة - كما أن هنالك محاولات كهنوتية بتبني النصرانية ، ونشرها عبر اهتمامات وتقنيات عصر الإعلام؛ على أمل جعل الإيمان النصراني أشد رسوخًا مرة أخرى.

والحق - كما ذكر القرآن الكريم - أن النصارى الحقيقيين - المطبقين لتعاليم النصرانية - هم الأكثر استعدادًا - على المستوى المحلي - للتعاون مع المسلمين في الشؤون

الاجتماعية. وهذا حق في جانب المعسكر البروتستانتى أكثر منه في جانب المعسكر الكاثوليكي أو الأرثوذكسي.

وهؤلاء النصارى يعلمون أنهم كما أصبحوا أقلية دينية في الغرب قد صاروا يركبون القارب نفسه مع المسلمين، وهم جميعًا يطفون في بحر من الإلحاد دائم الاتساع. وبالإضافة إلى ذلك فإن ثمة نوعًا من التيه الديني الذي يشكل ظاهرة نصرانية عالمية، فالشبان الذين يضلون طريقهم في الحياة، ويحسون بالفراغ في أثناء بحثهم عن مرسى ديني، وعن الانتماء والسلطة، ينتقلون من مرشد روحي إلى آخر، ومن مذهب ضيق الانتشار قليل الأعضاء إلى مثله، بما في ذلك الأشكال المستغربة من البوذية والأرواحية والنحل الأخرى الجديدة.

5- مشروع الحداثة الفاشل:

وهذا كله - إلى جانب ردود الفعل المعاكسة - لا يبشر، ولن يبشر على كل حال بتغيير درامي ثوري للأنموذج الغربي المهيمن، أو للمشروع الحداثي، والإفرازات المتواصلة لما يسمى عصر العقل وتنوير القرن الثامن عشر. والمسلمون الذين يحاولون أن يواجهوا هذا الموقف ينبغي أن يصعدوا عن تحليل شديد العمق، لهذا الأنموذج الفائق النجاح، والفائق الخطورة.

أ. تعديل (تنقيح) التنوير

إن التواريخ العقلية للعالمين الغربي والإسلامي، قد تطورت - قليلًا أو كثيرًا - بشكل متوازٍ، حتى عصر النهضة الذي فيه تحول الاهتمام في الغرب من الله (عز وجل) إلى الفرد. وجاءت فترة التوقف النصراني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حين حرر المفكرون الأوروبيون أنفسهم بشكل تدريجي من هيمنة الكنيسة، بتعزيز مكانة العقل البشري؛ باعتباره السلطة العليا في قضايا الإيمان.

وكانت الأسماء الكبرى - بالطبع - من الفلاسفة أمثال رينيه ديكارت (1596 م - 1650م) وجوتفريد ويلهلم لينتزر (1724م - 1804م) وكذا من الكتاب الكبار مثل فرانسوا فولتير (1694 م - 1778م) وجوتهولد إفرايم ليسنج (1729م - 1781م) ويوهان ولفجانج

فون جوته (1749م - 1832م) والملك فردريك الثاني الكبير ملك بروسيا (1749م - 1832م).

وهؤلاء الأشخاص لم يكونوا ملاحدة بالمعنى المطلق، لكنهم كانوا طبيعيين (5) يؤمنون بإله واحد، يُدرَك من خلال الانطباع والملاحظة، لا من خلال الوحي. ولم يكن هدفهم القضاء على الأديان، بل تحرير الإنسان من النماذج الخائفة، ومن الظلامية، وسيطرة الكنائس النصرانية.

وعلى ضوء إصرار التنويريين على حرية الفكر، والتسامح، والعقل، فليس من المدهش أن يعترف دعاة هذا الاتجاه من أمثال ليسنج وفردريك الثاني وجوته - نظريًا - أن يعترفوا - بغير أن يعنقوا الإسلام - بأفضليته عقلاً على النصرانية القائمة على التثليث والخرافات.

ب. من التنوير إلى العدمية (6)

ومن المؤسف أن الانعتاق من ربقة الكنائس - انعتاق التنوير - خلال القرن التاسع عشر، تحول إلى انعتاق من الدين كله. ولم تعد مقولات الكنائس هي وحدها التي تعد الآن غير منطقية، بل امتد الأمر إلى الإيمان بالله (تبارك وتعالى) وصارت الحاكمية البشرية لا الهيمنة الإلهية هي المقياس النهائي للحكم على الأشياء كلها.

والواقع أن العقل نفسه - الذي صار دينًا - والعلم الذي صار عقيدة غير متسامحة (كما كانت الكنائس من قبل) قد أصبح يمثل الآن وصفة للحقيقة غير قابلة للمدافعة.

ومن خلال قضائه على عقيدة الربوبية (والتخلي عن الإيمان بالله سبحانه) فقد أله الإنسان نفسه، أو أله الدولة، كما في الشيوعية أو الفاشية (7).

والشخصيات التي مهدت هذا الطريق هم: لوفينج أندرياس فويرباخ (1804 - 1872م) وكارل ماركس (1818م - 1883م) وتشارلز داروين (1809م - 1882م) وفردريك نيتشه (1844م - 1900م) وسيجموند فرويد (1856م - 1939م) الذين كانوا الآباء الروحيين لهذه الإخفاقات الكبرى في أوروبا القرن العشرين.

وحين أعلن نيتشه أن الله (عزوجل) قد مات، فإن كل شيء قد صار مباحًا. وفي هذه المرحلة فقط - وعند انعطافة القرن العشرين - فإن سياسة هوبز الفردية اللاأخلاقية تكون قد فرضت نفسها.

ج - خصخصة الدين:

و ضد هذا النزوع خاضت الكنائس حربًا خاسرة، ولا تزال. ولسوء حظهم فإن بعض الكنائس البروتستانتية أرادت التغلب على ذلك، وتسوية الأمور بطريقتها، فأخرجت نفسها من الموضوع كله، أو قطعت علاقتها بها.

وعلى هذا فإن معظم البروتستانت في ألمانيا - وفيهم بعض رجال الكهنوت - لم يعودوا يؤمنون بقداسة المسيح، أو عذرية مريم أمه - عليهما السلام - وقداستها.

بل لا يكاد يصدق - لأول وهلة - أن بعض مبشريهم باتوا يقدمون أنفسهم كشواذ جنسيًا، أو كفرًا بالحياة بعد الموت.

وعليه فإن الإيمان في الغرب قد صار - بشكل كامل - شيئًا ذاتيًا انتقائيًا ، أو - بتعبير أوضح - مسألة شخصية.

د - التحررية المدمرة

وبمجرد إقصاء الإله عن عرشه (سبحانه وتعالى) - كمصدر وضامن للقيم الأخلاقية - فإن النسبية الخلقية والانحلال الاجتماعي تفشيا بمعدلات خطيرة.

وقد أصبحت التحررية (الليبرالية) - بحق - تدمر نفسها؛ بإطلاق العنان للعواطف الجامحة، دون تقديم أطر أخلاقية كابحة وجديرة بالثقة.

وفي حين يبدو بعض الأشخاص الاستثنائيين قادرين على سلوك مرتضى في سبيل التحكم الأخلاقي في حياتهم - انطلاقًا من القانون الطبيعي، أو إدراكًا منهم بكرامة الإنسان - فإن جماهير الناس بدوا غير قادرين على الاحتفاظ بمستوى مقبول من الأخلاقية بعيدًا عن الدين. وهم غالبًا سعداء بأن يستوفوا حظوظهم من السعادة بطريقتهم الخاصة كما يقول ويليام أوفلس.

والحق أن التفسخ الأخلاقي (كما يرمز له بالمحارق الهولوكوست أو أساليب الإبادة الكاملة) هو الذي صار أكثر وضوحًا خلال القرن العشرين، بانهياراته الكلية في ظل الفاشية، والشيوعية، والشوفينية الصربية (8)، والاستغلال الرأسمالي.

وهل كان من المصادفة أن يشهد هذا القرن أشد الحروب على الإطلاق - بما فيها الحروب الكيماوية والذرية - إلى جانب المحاولات المروّعة للإبادة الصناعية لمجموعات من البشر: الفلاحين في روسيا، واليهود، والغجر، والشواذ في ألمانيا النازية، وكذا المسلمون في يوغوسلافيا السابقة؟

وهل كان من المصادفة أنه لا البابا ولا الكنائس ولا مواثيق حقوق الإنسان كانت قادرة على كبح هذا المد التدميري الهائل؟

هـ - التطبيب الذاتي:

يخدع بعض المراقبين أنفسهم في الغرب، باعتقاد أن ما يشهدونه هو - ببساطة - حركة انتقال عادية من مجموعة من القيم والأخلاقيات إلى مجموعة أخرى، في عالم دائم التغير. وهذه النظرة خطأ من جهتين:

فأولاً هناك قيم دائمة غير موقوتة، وغير قابلة للتغير على الإطلاق ، مثل حب المرء لأولاده، والعناية بالوالدين، وعدم قتل الأبرياء، وعدم التعذيب مهما كانت الظروف. وثانياً فإن بعض ما يسمى بالقيم الجديدة التي تحتفي بها الأجيال الشابة المعاصرة هي قيم غير مقبولة، ما دامت تصادم هذه القيم الخالدة.

والمثال على ذلك حالة امرأة حامل ترى أن رحمها ملك لها (9)، وكذا منح الرخص للقتل، ويصدق على هذا ما يدعى (حق الخوف) أي عدم المخاطرة بشيء شخصي لأجل عيون المجتمع، وما يدعى (حق التسميم) الذي أعلن عنه أعضاء أحزاب الخضر (البيئة) ليبرر بعض الناس أسلوب التدمير الذاتي؛ باستباحة استخدام المواد السامة، بشكل سيئ.

إن المجتمع الغربي - من سان فرانسيسكو إلى برلين - يمكن تحديد أبرز ملامحه بالآتي:

1. الانكسار المشؤوم في نظام الأسرة (المعدلات المربكة للطلاق - الأمهات الوحيدات - المهجورات - الأطفال الذين يعيشون دون والدين؛ أي المهجورين أيضاً) مما ينذر بانتهيار كلي للمجتمع بأسره.. وهذا مشفوع بـ:
2. إساءة معاملة الأطفال، والدعارة، والممارسات الجنسية غير القانونية والمنحرفة، والعنف الطلابي، وارتفاع معدلات جرائم الأحداث الجانحين.
3. إساءة استخدام المخدرات، التي انتشرت إلى حد صار معه العالم الغربي مدمناً في مجموعة (كحولات - سجائر - ماريجوانا - كوكايين - هيرويين - عقاقير هلوسة - سيد - النشوة... إلخ).
والإدمان الذي يعانيه الغربيون ليس إدماناً كيميائياً دائماً، فالتلفزيون والإنترنت أيضاً ربما صاروا إدماناً.
4. الفردية المفرطة.. وقد صارت تلك أيضاً مرضاً معدياً سارياً، فالغربي يعيش الآن في مدن عالمية إلكترونية هائلة ومشبعة بالتكنولوجيا، يعيش كمخلوق منعزل وحيد، وينحني بخوف أمام شاشة كمبيوتره الشخصي، في عالم افتراضي أكثر منه واقعياً، وربما اندمج في إشباع رغباته الجنسية، عبر مكالمات الهاتف، ومواد الكمبيوتر الجنسية.

و - صبغ المجتمع بصبغة اقتصادية:

ويعزو الخبراء الغربيون هذه الظاهرة - بشكل رئيس - لتأثيرات الاقتصاد الرأسمالي، الذي يُشَيِّ الإنسان، أو يجعله ذريعة بحسب مطالب الصناعة: الكفاية، تفعيل الناتج، السعي للوصول إلى الحد الأقصى للفائدة، تسريع الإنتاج.. إلخ.
وهم كذلك يشخصون - في سياق التعرف على أمراضهم الكبيرة - أن المجتمع الغربي يخسر تماسكه، وأن العلاقات الإنسانية تصبح الآن أشد برودة منها قبل مدة وجيزة.

والحق أننا نرى أنه بدلاً من التبشير أو الدعوة إلى رد أمريكا إلى الطبيعة، فإننا نشعر بالحاجة إلى إنعاش طريقة الحياة الأمريكية. وإذا كان ما يدخل في الاعتبار عادة هو قيمة ما يحمله الإنسان من الأسهم، فإن أئمن ما نملكه في المجاعة الزمنية التي نعيشها هو: الوقت.



رابعًا: ما الذي ينبغي أن يقدمه الإسلام؟



1 - نشر السمو الروحي بين عامة الناس

إن ما وصفته - بأمانة ونزاهة - يعني أن الغرب يعيش في أزمة: أزمة ثقافية آنية، رغم كل المنجزات الغربية في مجالات الديمقراطية وحقوق الإنسان والتكنولوجيا.

أزمة سوف تنتهي إلى السقوط الغربي السريع بعد فترة وجيزة من سقوط منافسه الكوني، العالم الشيوعي الذي انسحق حوالي عام 1990م. واليوم فإن القضية ليست قضية البروليتاريا الاقتصادية

القديمة التي أسسها كارل ماركس هي التي تهدد الغرب.. إن الذي يتهدهده اليوم هو الدعوات الروحية (كما يقول والتر ليهمان) التي فترحتها مائتا سنة من الحداثة.

2 - نحو أنموذج ديني:

ذكرنا أن الأزمة الخلقية في الغرب تمتد جذورها إلى تطورات عمرها مائتا سنة؛ لذا فإن نقدًا جذريًا - كما يتضح - لعقلانية الحداثة هو الأمر الأشد أهمية. ولو أن تحريرًا حقيقيًا من وهم الحداثة قد نجح فإن الرجل الغربي قد يتمكن من تغيير طريقته في التفكير. ولإنقاذ الغرب من تدمير نفسه ثقافيًا عن طريق تسميم ذاته، فإن الأمر يتطلب إعادة تأسيس روابط شديدة الفاعلية من خلال إعادة تقديم مفاهيم الألوهية والمقدس، وإعادة الاعتبار للدين كرد فعل معقول للحالة الإنسانية *conditio humana* مع عدم الاعتداد المطلق بالعالم الوضعي (10) لكونه تنقصه الأسس العلمية الخالصة. وبعبارة أخرى: فإن المطلوب هو أنموذج ديني جديد لتفسير العالم (للنظر إلى العالم). وشكرًا للإسلام الذي أنا مقتنع تمامًا أنه من خلاله يمكن - بمشيئة الله تعالى - أن يقدم ذلك.

أ - الدين التلفيقي لن يقدم شيئًا

أنا لا أنكر - نظريًا - أن الإيمان النصراني يمكن أن ينقذ الغرب من مزيد من الانحدار نحو الكارثة. لكنني لا أعتقد أن النصرانية يمكنها فعل ذلك - عمليًا - لأن هذه العقيدة قد فقدت الكثير جدًا من مصداقيتها في الغرب، ولأنها لا تبدي الحيوية الضرورية لتغيير اتجاه المسيرة. وأنا - في الوقت نفسه - مقتنع أنه ليس ثمّ نظام مطلق للتفكير يمكنه أن يحقق قوة أخلاقية في الجسد الغربي، لا البوذية ولا الليبرالية (التحررية) المستنيرة، المنبئية على القانون الطبيعي.

وإن الاختيارات الأخلاقية تتطلب دوافع أخلاقية ، لقوة لا يستطيع أن يوفرها إلا دين حي،
وشكرًا لله تعالى أن هذه الدوافع مغروسة بعمق في صميم كل فرد وفطرته، فأما الأديان الإسبرانتو
- الزائفة أو التلفيقية (11) فهي أعجز من أن تحقق هذا.

ب - الإسلام قادر على التغيير

أعتقد أن الإسلام يمكنه أن يقدم كل ما يحتاجه أمر إنقاذ الغرب، بالرغم من عوامل النقص
التي يعانيها العالم الإسلامي من المعوقات والردائل: كالأمية، والفقر، والفساد، والظلم
الاجتماعي، والتعذيب، والبلادة، وزرع الفتن، وقلة التحمل، والانفراد بالسلطة، والتمييز ضد
النساء، والمادية المتزايدة.
إن الإسلام قادر على إنقاذ الغرب، بالرغم من العيوب المنتشرة بين المسلمين، وسيأتي مزيد من
التحليل التفصيلي لذلك.



3- تهدئة أمريكا:

في أوائل السبعينيات حلم الوجوديون الأمريكيون من جيل (تانجلوود) الضائع ، وجيل (أبناء الورد) (12) حلموا بإعادة أمريكا إلى الطبيعة، وبدلاً من ذلك فإننا نشهد خمودها وسقوطها. والحق أن درجة الحرارة الاجتماعية في الغرب كله تهبط بشدة، وبشكل أكثر وضوحاً مع جيل الكمبيوتر.

وحيثما ينظر الإنسان فإنه يجد تناقضاً صارخاً بين مطلب السيد المسيح عليه السلام (أحب جارك كما تحب نفسك) وبين ما يلحظه المرء من منافسة لا ترحم، حيث الناس منشغلون (كالشرانق الاجتماعية) بسعادتهم الصغيرة الخاصة.

أ - بث دفء العلاقات في أمريكا:

إن المسلمين - على كل حال - يلقون الإعجاب لحسن تعايشهم الاجتماعي. ودفء لقاءاتهم يُلحظ في كل مكان، حيث يعانق الأخ أخاه حين يلقاه، ويلحظ الغربيون - بشيء من عدم التصديق - كيف استطاعت الاتحادات الإسلامية أن تبني مراكز إسلامية بجهود أعضائها فقط، حيث يتطوع عمال البناء بالعمل أثناء العطلات. وثانية أقول: كم من باحث عن دين يجد طريقه إلى الإسلام بسبب ما يلحظه من الود الشديد بين المسلمين. لقد نزعوا عن الدين خصوصيته الكنسية (13) وهذا يعجب الشبان كثيراً.

ب - التماسك العرقي:

ليس في أمريكا وإسرائيل وحدهما يعاني ال غرباء بشكل واسع من الإجحاف العرقي؛ فالمهاجرون المسلمون صاروا يعانون - أكثر من ذي قبل - من تمييز عرقي وديني ، يمكن أن يشبه حالة التدقيق الأمني في المطارات؛ حيث تؤخذ المعلومات، ويدقق في حالة كل راكب. ولسنا نزعم أن الإسلام استطاع استئصال التمييز العرقي كلياً؛ لكننا نعلن مع (جيفري لانج) أنه لم يستطع دين - كما استطاع الإسلام - أن يقارع هذا الشر. والحق أن استمرار وجود مساجد السود في الولايات المتحدة يرجع أكثر ما يرجع إلى موقع المسجد، لا إلى نوع من الفصل العنصري في الإسلام.

ولكونهم حساسين من هذه المقولة فإن البريطانيين والفرنسيين والألمان الذين اعتنقوا الإسلام استمروا في مقاومة الإغراء بإنشاء اتحادات قائمة على أسس عرقية ؛ لكنهم - بدلاً من ذلك - أنشؤوا اتحادات إسلامية في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا، ونظموا لقاءات للمسلمين المتحدثين بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية. وكثيرون قد اعتنقوا الإسلام من أول وهلة، بسبب عدم اعتبار (العرق) في المجتمع المحلي.

ج - المؤمنون الأحرار:

يتصرف كثير من الشبان الغربيين - غالبًا - بحساسية نحو السلطة القائمة على النفوذ الكهنوتي.. وإن مما يلفت انتباههم للإسلام كونه يجتنب الأشكال النمطية المشابهة للكنائس في مؤسساته.

والحق أنه لا شيء من الأفعال العبادية التي فرض على المسلم أن يأتي بها يستلزم تعاون أو حضور مسلم آخر.

وأي مراقب مؤهل لقراءة القرآن الكريم (أي بالغ غير جنب) يمكنه تلقائيًا أن يكون إمامًا في الصلاة.. كما أن كل مسلم يمكنه أن يختار مذهبه، والفتوى ليست ملزمة إلا بذاتها، وخادم الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ليس (بابا) والزواج في الإسلام بلا أسرار مقدسة. ويغني المسلمون إمكانية الحاجة لشريك ثالث (وساطة بينهم وبين الله تعالى على الطريقة النصرانية) فإنهم يبدون أشد المؤمنين حرية، الذين يمكن للمرء أن يتخيلهم، فلا شيء يضغط عليهم: لا قسيس، ولا طقوس مقدسة يمكن أن تتدخل في العلاقة بين المسلم وخالقه سبحانه. وبمجرد إدراك الشبان الغربيين لهذه الفكرة فإنهم يقعون في إسارها إعجابًا وانبهارًا.

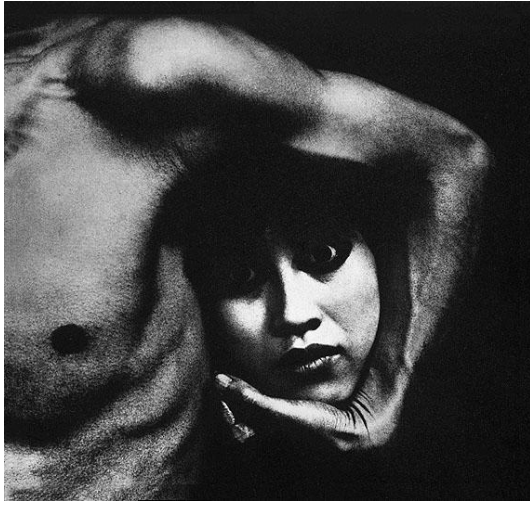
د - اللاعقلانية الدينية

لا يدلل الغرب شيئًا أكثر مما يدلل العقل، فهو يصنف نفسه مملكة للعقل. وإن فيلسوفهم الأعلى - الذي لا أحد فوقه عندهم، عمانويل كانت - قد علمهم أن وجود الله - تعالى - لا يمكن إثباته بالعقل المجرد، أو بالاستنتاج العقلي المبني على الحدس البشري.

لكنّ (كانت) توصل إلى أن الجنس البشري لا يمكن أن يواصل مسيرته، دون افتراض وجود الإله (سبحانه) كنوع من التفكير، أو الاستنتاج العملي.

ومما يدعو للسخرية أن كثيراً من الناس في الغرب الآن يتصرفون كما لو كان (كانت) قد أثبت غياب الإله (سبحانه وتعالى) وكما لو كان العلم المادي المبني فقط على الإدراك الحسي علماً معصوماً لا يخطئ!!

هـ - العقلانية الدينية:



ومهما كان الأمر فإن أولئك الوضعيين يمكن إقناعهم بأن مفاتيح هذه الفرضيات النصرانية، مثل الخطيئة الموروثة، والتجسد الإلهي للمسيح (عليه السلام) واحتمال آلام الصלב تكفيراً عن خطايا البشر والتثليث، هي - في أحسن الأحوال - أساطير، وهذا من عمق عقلانية الإسلام الفذة في عقيدته بالوحدانية الخالصة لله تعالى ، وبأحدثه المقبولة منطقياً.

إنهم عند هذه النقطة سينبهرون بالعقيدة ، التي ترى أن من التطرف - طبقاً للمفاهيم الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية - القول بأن الله تعالى غير موجود. وقد يتحققون من أن هذا العلم، الذي يُقدّم كأيدولوجية، قد أسس على أسس تجريبية (أمبريقية).

ومن هذا المنطلق الذي يصف الدين باللا معقولة، فإن بعض الناس سيقدرّون الإسلام أكثر الأديان عقلانية؛ لأنه دين الناس الذين يلاحظون ويفكرون ويتأثرون.. الحق الذي يمكن أن ينافس الحداثة في بحثها عن العقلانية الأنطولوجية (14) .

و - التوازن النبوي:

ليس إفراطاً في التشاؤم أن نقول إن الإدمان - بما فيه إدمان الكحول والنيكوتين - قد وصل إلى معدلات مدمرة في الغرب.. فالمخدرات في كل مكان: من المدارس العليا (الثانوية)

إلى قطارات الأنفاق، وبعض أحياء المدن في الولايات المتحدة تكتظ بالمخدرات ، لدرجة تجعل رجال الشرطة يهزون أيديهم في يأس.

وفي هذه الحالة فإن المسلمين الطيبين - لكونهم معتدلين بحكم التوازن العقيدي - هم الأمل الوحيد الباقي للقضاء على المخدرات.

والحق أن آباء المدينة (كبار المسؤولين) في العديد من المدن الأمريكية الكبرى باتوا يسلمون مقاليد مسألة مواجهة المخدرات للمؤسسات الإسلامية، بعد أن أثبت أصحاب هذه المؤسسات أنهم - وحدهم - القادرون على محاربة المخدرات بشكل سلمي وفعال.. وهي مسألة بدأت داخل جدران السجون.

ومن ناحية أخرى فإن التدخين قد أصبح بسرعة شيئاً غير أمريكي هذه الأيام، وأصبح - من وجهة النظر السياسية - أمراً خطأ، ألا يعتبر عمل المسلمين الذين يندر بينهم التدخين - إن لم ينعدم - شيئاً بطولياً في هذه الظروف؟!

ز - أضواء على الأسرة

يثور المراقبون الغربيون المنتبهون عندما يفكرون فيما يمكن أن يحدث للمجتمع حينما يشب معظم الصغار - بسبب الانهيار الأسري - في أسر وحيدة العائل.. إنهم يخشون ظهور جيل مريض.

وعلى هذا الأساس فإن المسلمين - الذين يضعون الأسرة على رأس المؤسسات الاجتماعية - هم حملة رسالة لكل المهتمين، مفادها أن خراب الحضارات يبدأ وينتهي عند العائلة.

ح - الاختيار الحياتي:

إن معظم المحافظين في أوروبا وأمريكا قلقون كثيراً بسبب حقيقة أن الإجهاض قد صار قانونياً في كل مكان. ففي ألمانيا يدافع حتى القساوسة الكاثوليك عن قراراتهم التنفيذية التي تجيز الإجهاض. ويقدم الإسلام - الذي يعد الإجهاض محظوراً، ما لم تكن حياة الأم معرضة لخطر حالّ وبين - يقدم حلاً أخلاقياً لهذا الأمر. ألا يكون هذا مبشراً بالنسبة للمحافظين الغربيين لأن يدخلوا في تحالف مع الإسلام، بدلاً من أن يفجّروا عيادات الإجهاض؟!

ط - لا المتطهرون ولا الإباحيون:

ومنذ بطرس وبولس (الرسولين) وأوجستين، والبندول يتأرجح يميناً وشمالاً، بين روح التطهر التي تتلبس بعض النساء (لعلها) الرهينة أو الإمعان في الأصولية، وبين الاستغراق الجامح في الأعمال الجنسية، وبلا حدود، وبلا مقدسات. ولقد أفلح الإسلام في مزج النشاط الجنسي بالعبادة في الحياة اليومية للمسلمين، وبدون تشويه للمرأة ولا الزواج، ولكن - أيضاً - دون إضفاء قداسة على الزواج (لعله يقصد التأييد والديمومة).

وهذا الفهم المتزن الذي يراعي فطرة الإنسان، ويساعد على إيضاح كيف أن الرهينة، وعملية حرق الساحرات بقيتا ظاهرتين نصرانيتين. هذا الفهم - وفي هذه المنطقة شديدة الحيوية نجد الإسلام - كدين وسطي يمقت كل أشكال التطرف - يمكنه إحداث فروق كبيرة داخل المجتمع الغربي.

ي - تحرير المسلمة:

لا تفتش المرأة الغربية - من خلال تحررها - فقط عن العدالة الاجتماعية، وتحقيق الذات، بل تطمح إلى إنهاء استغلالها، وتوظيفها كمادة جنسية. وبإعطاء الدعارة الاحترافية، والجنس غير المتحفظ، دعاية تجارية وعلمية غير متحفظة سيبدو واضحاً في الغرب كيف أن المرأة المسلمة - في أثناء بحثها عن نفس الحقوق التي تريدها أختها الغربية، كانت أكثر توفيقاً في الدفاع عن كرامتها؛ من خلال التقيد بالعادات ، وبأحكام الشريعة.

ك - مواجهة الشذوذ الجنسي

لا يكاد أحد يشك في أن الشذوذ المتفشي هو دلالة صارخة على الانحطاط الثقافي . وهو - بهذا - إنذار مبكر لحضارة على وشك الانهيار.

ومع أنهم في الغرب يعتبرون اللوطيين والسحاقيات منحرفين فإن سلوكهم يعد - كذلك - من الاختيارات المقبولة، التي تصلح اختياراً حياتياً لهم. وهؤلاء الشواذ ينشرون اختياراتهم الشاذ هذا بشكل ملح، طالبين الاعتراف بهم كأقلية ينبغي أن تتم حمايتها، مثل النساء والسود. وفي سان فرانسيسكو أصبح حيّان كبيران من أحياء المدينة مكانين كاملين مكرّسين للشواذ. وفي أوروبا صار الأزواج من الشاذين على وشك الحصول على حق الزواج، ليستمتعوا - قانونياً - بكل الحقوق العادية - المترتبة على عقد الزوجية! وعلى هذا الأساس فإن الأغلبية السوية (غير الشاذة) قد بدأت تشعر بأنها تُدفع إلى معركة، وتخاف على مؤسسة الزواج.

إن عليهم التأكيد من أن الإسلام - في هذا الأمر أيضاً - يسلك مسلكاً وسطياً معقولاً، فهو يظهر عطفه على الذين يظهر أنهم ولدوا شواذاً (15) في حين أنه يرفض تشجيع الزواج من نفس الجنس، كنظام بديل في الحياة. ولسنا في حاجة إلى القول بأن تطبيق الإسلام بشكل صحيح هو أيضاً حلّ أو إجابة عن الأخطار القاتلة المرتبطة بالإيدز.

ل - الحذر من زيادة الوزن:

والرجل الغربي شديد الحذر، وشديد الخوف من ارتفاع معدلات الكوليسترول، وهو دائم البحث عن أنظمة غذائية صحية جديدة ، ومعجزات للشفاء من السمنة.. ألا يجدر بهؤلاء الناس أن يقدرُوا الإسلام حق قدره؛ لأنه الدين المعقول الذي اكتشف لنا أحكام رمضان؟!

م - إدارة التوترات والإجهاد:

والإنسان الغربي مجهد بشكل مفرغ، حتى الأطفال في المدارس، وحتى المتنزهون أيام العطلات متوترون مجهدون.

وهم دائمو التردد على الأطباء النفسيين، للتغلب على مشكلات الحياة. وقد صارت أساليب التأمل الاستغراقي، الباحث عن الاستعلاء النفسي - كاليوجا، وحفلات الشاي اليابانية - صارت من الآليات التي يتعامل معها الأشخاص المجهدون.

ومثل هؤلاء الناس سوف يجدون الإجابات عن أسئلتهم كلها باختيارهم تكتيكًا إسلاميًا للتأمل الدائم المنتظم (مثل الصلاة، والتأمل العقلي المواكب لها): إن الإسلام تسليم لله تعالى، والتقوى ربط للضمير به عز وجل.

ن - تفعيل الرأسمالية:

إن الاقتصاد الغربي ومنذ ظهور الرأسمالية والاشتراكية - ظل يتردد بين دينك النظامين. أما في الإسلام فقد وضع القرآن الكريم نظامه الاقتصادي الذي يعلي الملكية الخاصة؛ لذا فإن الناس محميون من السقوط في وهدة الاقتصاد الجماعي (16). كما أنهم - أيضًا - في الإسلام يعادون الاستثمار الرأسمالي؛ بالإصرار على تحقيق العدالة الاجتماعية تحت أي ظرف من الظروف..

كما أنهم يصرون - إضافة لذلك - على استخدام رأس المال بشكل محدد، على أساس المشاركة في الربح والخسارة، وبدون ربا. وهم - بذلك - يحمون التزامهم الروحي، الذي بنيت عليه حيويته الرأسمالية، والذي بدونه سيصبح الاقتصاد مشبعًا وراكداً.

4- الكمية مقابل الكيفية:



ويمكن للمسلمين - في الجملة - أن يشيروا لشركائهم الغربيين بأن أكثر الفروق الجوهرية بين عالميهم، هو اتجاههم المختلف ، في النظرة إلى الكمية والكيفية.

فالغربي عادة يعلي المفاهيم الكمية، لدرجة أنه لا يكاد شيء أن يكون (نقوداً) حقيقية. وأما القيم فلا يمكن تحجيمها (أي جعلها شيئاً كمياً) رقمياً مثلاً. والحقيقة أن هناك إنكاراً عاماً للقيم غير القابلة للتحجيم، وكذا للقيم الروحية الخالصة.

ومن هنا فإن حياة الرجل الغربي مبنية على الامتلاك، في حين أن حياة المسلم مكرسة لأن تكون (شيئاً ذا بال).

ولأن الشرق - بما فيه العالم الإسلامي - متأثر بهذا الاتجاه، فهو المنطقة التي تُعلى فيها المفاهيم الحياتية المعنية بالكيف على المفاهيم المعنية بالكم. وللحق فإن (كيفية) الحياة، مفهوم إسلامي ينبغي أن يدق أجراً كثيراً.

5- الإسلام هو الإجابة:

في الفصل السابق دوناً قائمة بأربعة عشر علاجاً مختلفة يقدمها الإسلام للغرب. وتقديم إسلام من هذا الطراز - إجابة لكثير من الأوجاع والأمراض التي أفرزتها الحضارة الغربية - هو الاستراتيجية المثلى للدعوة لدين الله تعالى:

أ- الاعتراف بالمرض:

بديهي أنه لتحقيق الشفاء، فإن على المريض أن يعترف أولاً بمرضه، لكن وأأسفاه: فبرغم التحليلات الألمعية - كالتي قدمها دانيال بل، وويليتك أوفلس - فإن القليل من الغربيين متنبهون إلى خطورة أزمته الحضارية، والأكثر من ضحايا للانتصار المعمي. ولهذا فإن الظاهر أن الناس - بدلاً من تغيير الاتجاه في منتصف الطريق - يفضلون المضي قدماً فيما هم عليه من أخطاء وخطايا.

ب - تعاطي الدواء:

ولا يكفي الرجل المريض أن يعترف بكونه مريضاً ليشفى، بل إن عليه أن يتعاطى الدواء الموضوع على طاولته. لكن جزءاً من المشكلة التي تواجه العالم الغربي - للأسف - هي بالضبط عجزه عن اتباع بصيرته؛ لكي ينجز ما هو صواب. إن الغرب مذذب بين الفعل وعدم الفعل، في مواجهة فظائع الصرب في البوسنة والجبل الأسود وكوسوفا.

وهذا أيضاً نتيجة للانحطاط الخلقي السائد الذي يفسر هذا الموقف.. وكما قال رومان هيرتزج - رئيس ألمانيا الاتحادية فيما بين 94 - 1999م وهو كلام جدير بأن نقف أمامه: إن مشكلتنا ليست تأملية، لكنها مشكلة متعلقة بالتطبيق.

ج - علامات على الجدار:

يحكي القرآن الكريم عن أمم كثيرة ماضية، فشلت في قراءة العلامات على جدرانها (الموجودة حولها) ورفضت كل التحذيرات الإلهية، حتى انهارت حضاراتها بطرق مأساوية. وأعتقد أنه لكي يطمئن الغرب فإن عليه - أيضاً - ألا يحشد شجاعته في مواجهة الإصلاحات الأصولية الضرورية. ولو فشل الغرب هذا - بعد الانتصار على الشيوعية - فسيبدو أنه في طريقه لإغراق نفسه في دمار ذاتي عريض. وسيقع ضحية لتناقضاته الداخلية الذاتية - ومعظمها مدمر - وعلى رأسها الشرك بالله تعالى وتآليه الإنسان. وهذا سيقع حتماً ما لم يعد الغرب الاعتراف بالمقدسات، والحقائق العليا، والإله الموجود - سبحانه - ويبدأ - فوق ما مر - في العيش طبقاً للقيم المطلقة، والأخلاق الإلهية التي أنزلت على البشر من خلال القرآن الكريم، والتي أكدتها سنة آخر رسل الله، صلى الله عليه وسلم.

- (1) هذا الخلط كثير جداً للأسف في مناهج علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بين البشري والمقدس.. (المترجم).
- (2) يعد نورمان دانيال الباحث الرئيس في أصول الصورة التاريخية النمطية المعادية والمتحيزة ضد الإسلام.
- (3) المؤسسة الملكية في بريطانيا.
- (4) في قوله تعالى: (وأُنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون).
- (5) الربوبيون أو الطبيعيون DEISTS طائفة تذهب إلى الإيمان بالله تعالى بغير أديان منزلة، وتدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا الوحي، ويؤكد على المناقبة أو الأخلاقية، مع إنكار تدخل الخالق سبحانه في نواميس الكون. وقد ظهوروا في القرن الثامن عشر (المترجم).

- (6) العدمية NIILISM مذهب يرى أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنله، ولا غناء فيه، وهي - كذلك - مذهب يرى أن الأحوال في المجتمعات المعاصرة قد بلغت من السوء مدى يجعل الهدم مرغوباً فيه لذاته، دون تفكير في البناء.. (المترجم).
- (7) الفاشية حركة أو فلسفة سياسية تمجد الدولة والعرق، وتدعو إلى إقامة حكم أوتوقراطي مركزي، على رأسه دكتاتور، وإلى السيطرة على كل شكل من أشكال النشاط القومي (المترجم).
- (8) الشوفينية: الغلو في الوطنية إلى حدود شديدة التطرف ((المترجم)
- (9) لتفعل ما شئت: فتفجر، أو تجهض نفسها، أو تؤجر رحمها، أو تحوله، أو تستأصله، كما نقرأ في الطروحات الغربية الكثيرة.. (المترجم)
- (10) الوضعية: فلسفة أوغست كونت التي تُعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب مهمة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة. (المترجم)
- (11) التعبير هنا بكلمة إسبرانتو يفيد التلفيق والتزييف، والإسبرانتو لغة دولية مبتكرة، بنيت على أساس التلفيق والجمع بين الكلمات المشتركة في اللغات الأوروبية الرئيسة.. (المترجم).
- (12) يبدو لي أن جيل تانجلوود وأبناء الورد من الهييز الضائعين الذين ظهروا بعد حرب فيتنام وكذا في السبعينيات، في مقابل أجيال الحرب، وكانوا ينادون - تحت شعار العودة للطبيعة - بالحرية المطلقة، والتمرد على الضوابط الدينية والخلقية (المترجم).
- (13) أي جعلوه سلوكاً عاماً بعيداً عن عقد الكهنوت. (المترجم)
- (14) الأنطولوجيا **Ontology** أو علم الوجود: نظرية تبحث في طبيعة الوجود. (المترجم).
- (15) لست أدري من أين له هذا الفهم.. (المترجم).
- (16) الجماعية في الاقتصاد مذهب اشتراكي يقول بسيطرة الدولة - أو الشعب ككل - على جميع وسائل الانتاج والنشاطات الاقتصادية.. (المترجم).





لقائي مع المفكر الكبير الدكتور مراد هوفمان
من كتابي: قراءة في السلفية المعاصرة